

الى مدينة النصر

بقلم محمود نيمو

المستثيرة عن جدارة واستحقاق .

سافرنا لنحتفل في مدينة النصر بنصر
آخر في ميدان المعرفة الانسانية ،
يباري كسب المعارك في حومة الجهاد
الوطني .

سنشارك في احياء ذكرى الاستاذ
« اسماعيل مظهر » المؤلف والمترجم
والباحث والاديب .

واحتوتنا السيارة ، رفقة من كانت
لهم بصاحب الذكرى صلة زمالة ،
وأصرة مودة ، وجعلت تطوى بنا
رصيف النيل من شاطئ « الجزيرة »
بالقاهرة ، مخلفين وراءنا جسر ٢٣ يولية
الذي لم يعد يحمل من مظاهر التجديد
والإتبعات إلا رثم التاريخ الذي ارتبطت
به في عهدنا الحاضر حركة التجديد
والإتبعات .

ما أحرانا ان نلقب هذا الجسر :
جسر ما قبل التاريخ ... أكاد أتأمله
ملقيا بهيكله المضعف على النهر ، كأنه
« دينا سحر » هائل من فصيلة
الحيوانات المنقرضة ، قد جف دمه ،

لست اعنى مدينة « بورسعيد » ،
مدينة النصر في يومنا الحاضر ، ولكني
اعنى نظيرتها في الامس غير القريب .

وسواء اسميتها « مدينة النصر » ،
ام قلنا « مدينة المنصورة » ، فان
حروف اسمها تحمل معنى الفوز
والكسب والغلبة ، معنى الانتصار .

اني لاحس ، وانا أتأمل هذا الاسم
ان ضوا ساطعا ينبعث منه ، لا يخبرو
على الايام . انه ضوء التاريخ الذي
أوقده الأهلون من سكان تلك البقعة
الطيبة في مواقعهم الجيدة مع المغيرين
الدخلاء .

نحن في زيارة لمدينة النصر ...
مدينة السود والعزة والكرامة ، نقصد
اليها مستجيبين لدعوة كريمة وجهها
اليها نخبة من الاصفياء الاحرار ،
لنشاركهم الاحتفاء بذكرى زميل من
اعلام الفكر والرأي والتجديد ، حمل
لواء العلم ، متقدما به الصفوف ، وبشر
بمذاهب عصية في نظم الحكم
والاجتماع ، وكسب في النهاية نصرا
مؤزرا في ميادين الثقافة الاصيلية

ورميت اليه ببصرى استطلع ،
فواجهني محياه الجهم . وهو يواصل
قوله بنظرات حداد :

انسيتم امرها ؟ انها « شيكافو »
مصر ، او « فالاس » العالم العربي ...
كما يقال ! ... لقد اختلط بأهلها نفر
من قطاع الطرق ، فاشاعوا حولها ما
اشاعوا من دعر واضطراب .

ولم يكده بفرغ من قوله ، حتى كا
امام محطة « سنديون » ، وهي مشيدة
على طراز امريكي محدث ، فكانها
اقتلعت بجذورها من مكانها في جنوب
« امريكا » وغرست هنا في مقرها
الجديد ، حاملة معها روح موطنها الاول :
روح العنق والجراة والاقتحام !

لسنا ندري حقيقة ما يشاع ، ولكن
الشائعات على كل حال مادة للتسليية ،
ومشار للتفكه ، ولا بأس على اهل
« سنديون » مما يعابثهم به اهل القرنة
والفضول !

وتواردت حيل انظارنا الجسور
الجدد ، قافرة او عابطة ، وهي من
لعمرات الحضارة الصناعية الالية ،
تضفي على فتنه الطبيعة سحر العصر
الحديث .

وبدت افهام البرتقال تزحم اطراف
الطريق ، وبالعصاة الحسان يتسابقن
في عرض تلك الثمار الذهبية التي يفوح
منها اريج زكي . وتراعت على الجانبين
بساتين زاهرة تخلق الانظار بروتقوسا
اليهي .

واخترقنا منطقة « مشتهر » ،
حيث يزهو معيها الزراعي : اول
معهد للزراعة عرفه الريف ، وكانت

وتناثر عنه اللحم والجلد ، ولم تبق
منه الا اضلع من عظام نخرة ، توشك
ان يدركها التفتت والبلى .

مالنا ولهذا « الدينا صور » الهرم ،
وامام اميننا يتجلى على الرصيف اشراق
التنطور والتحضّر ... هذه « شسيرا »
الخيمة « تستقبلنا بساحاتها الرحبية ،
وبقصرها الذي عمرته كلية للزراعة ،
وبما قام على حفاف المزارع من ابنية
شعبية ، ومن منشآت للعلاج .

ثم هلت علينا « محطة شسيرا » ،
وكدت اكذب بعني ... اهله حقا محطة
شسيرا التي كنا نلقاها في يواكير صباننا
مجبورا شحطاه كانها ساحرة من
ساحرات قصص الاطفال ! لقد اخلت
مكانها لمبنى رشيق ، ما أشبهه بفانة
عصرية تتألق صورها على غلاف مجلة
تقدم للقراء أحدث مبتكرات الازياء !
واقبلنا على « قلوب » ... وقد
زحف عليها التقدم الصناعي ، فأحال
جانبا منها الى مصانع ومؤسسات
وابنية شاهقة للسكنى .

وتابعنا السير في الطريق السريع ،
فأتلوت اتبهاى ظاهراتان : الاولى نشاط
التشجير ، والاخرى قيام محطات انتظار
لركاب السيارات العمامة ، وفي هذه
وتلك ما ينفي الوحشة واللئل من الطرق
الطويلة ، ويبعث فيها الحيوية
والايتناس .

وكانت الحقول الخضراء تحيط بنا على
مرمى النظر ، فنتمتع بمعراها البهيج ،
واذا الدليل يرفع عقيرته صالحا :

نحن مقبلون على « سنديون » ...
فكونوا على حذر !

عناية ظاهرة ، فهي سوق لبيع اللحوم
وتصديرها الى مناطق شتى .

وما ان اتم دليلنا قوله ، حتى برز
لنا على جانبي الطريق صفان من العجول
الدييحة المعلقة في حوائت رفيعة من
حوائت الهواء الطلق ... اعلنا حيا
للسهرة الضافية التي احرقها البلدة
في ميدان الذبح والسلخ !

وجزنا بارض المديحة ، وطالعتني شبح
عجل يتوالب حول امه ، وملء اوصاله
فرحة ونشطة ومراح ، فتأملته مليا
والحسرة في جوانحي : انه يجهل
ما يخينه له القدر من مفاجات . يلهو
الساعة مطمئا في حضن امه الروم ،
فاذا آب من جلونه انقضت عليه سكين
الجلاد ، فهو منخبط في دمه ، وامه
تنظر اليه كأنه يلعب حولها ، بيد انه
يلعب في هذه المرة لعبته الاخيرة ، يقوم
بعرضها على مسرح الوجود ، وهو
يؤدي له حق الوداع ... ليس لمة من
الجديد ايها الأم الثكلى ، كلنا مثل ابنتك
الذبيح ، نحيا لاهين مستبشرين بالحياة
والقدر منا بمرصدا ، وكما أهوى بسكينه
الماشية على رقابنا ، ونحن في غفلة
ساهون ، فتساقط كما تساقط هذه
الواليد الصغار في عالم الحيوان !

وكان « بحر شيبين » لا يزال
بصاحبنا ، وهو تارة يضرع ويهول ،
وطورا يتضخم ويتنفخ ، وقوارب
التعدي العراض لا تكف عن الحركة على
متن الماء .

ورايضا على البعد « ميت لمر »
بمصنعا الضخم الجديد : مصنع
النسيج ، والفيتن على الفور اردد دون
وعي :

قطعتان الابتسار والجواميس ترفع في
الرائي ، وهي تبعث الينا بشبرات بشر
وترحيب .

وترات لنا « بنها » ، او بالأحرى
« بنها العسل » ، وسرعان ما انحرف
بنا الطريق عنها ، فلم نجد للعسل
مداقا ، ولا شمعا له شلدي ...
والطريق الذي مضت فيه السيارة هر
طريق « ميت غمر » المحاذي « لبحر
شيبين » ، وانه لبحر شاعري ، يدكي
الخيال ، ويفسح له مجال انطلاق ، وان
ضغتيه لتزخران بالفيد الملاح القواني
يرتدنه ، ويخضن مياه الضحفاح ،
ليملأن منه جزارهن ، كاشفت عن
سباق بضة تلوح تحت الشفوف ، وان
كن ملثعات الوجوه ، فكانهن اخيلة
رفافة من عالم الرؤى والاحلام ...

ونفس الطريق بشمر البرتقال ، ونحن
مقبلون على « كفر شكر » ، وما اولاه بان
يدعي « كفر البرتقال » ! وكانت تصافح
أعيننا أبراج الحمام ، عالية الهلمات
بقدودها الهيفاء .

ولما بدت لنا « طنامل » مال على
الدليل يقول :

ان ما اصابت « طنامل » من شهرة
وبعد حيث يعود الى امرين هذين :
الاول انها موطن « دميانة » بطلة قصة
« ابن طولون » التي كتبها « جورجى
زيدان » منذ عشرات السنين . ومن
العجيب ان تغدو « دميانة » - وهي
بطلة حب ومغامرة - قديسة لها في
قلوب اخواننا الاقباط كل اجلال
وتقدير ، وان لها لصورا تتداولها الناس
بيعا وشراء كمرم البتول ... والأمر
الأخر ان « طنامل » معنى بتربية العجول

سائلوا الليل منهمو والنهارا
كيف بانت نساؤهم والعدارى

كيف اسحق وليدهم فقد الام
وكيف اسطلى مع القوم نارا

بيتان من قصيدة لشاعر النيل
« حافظ ابراهيم » سجل بهما حريق
المدينة منذ عشرات الأعوام ، فجعلت
اسمائل نفسى : ايها اعظم وابش ؟
قصيدة « حافظ » ام مدينة « ميت
عمر » ؟ ... سؤال اطرحه على سمع
الزمان ، والجواب الصائب فى ضمير
القيى ، سوف يعرفه اخلافنا من
اجيال الفد البعيد !

وظهرت مشارف « المنصورة »
حافلة بالوحدات الصحية ودور
الحضانة ومصنع الخشب الحبيبى
ومعمل اللبن البستر ، وما الى ذلك من
المنشآت العامة ... وثمة حديقة
فياحة ذات اثنان والازهر غاية فى
التسيق والابداع ، تحتضن ابنية
ورشيقة كأنها بيوت صيفار محدودة
تعلوها قباب ، فهممت أقول :

ما أسعد سكان هذه المشابة الجديدة ،
انها حقاً مدينة الأحلام !

فهمس الدليل فى اذنى :

انها ليست مدينة الأحلام ، بل
مدينة الحقيقة الكبرى ... مدينة
الموت ... هذه مقابر لاحدى طوائف
المسيحية .

فاجيبته ، وعينى عاتقة بتلك المشابة :
ان من بين الموتى لمن ينعم بمرقد وثير
هنىء يهفو الى مثله الاحياء !

ولفتنا بقعة وسفها الدليل بانها

« بوابة المنصورة » ، فلذا هى ذات
سحنة طحتتها السون ، واذا هى غارقة
فى أوهام الماضى وأوضاعه ، قرية من
قرى العصور الوسطى مازالت سوفها
الانثري قائمة ، كأنها متحف لا يحوى
الا اطلال آثار .

وما كان أشد عجبى حين سمعت من
الدليل ان هذه هى « سندوب » ،
فلقد طالما اقترن هذا الاسم عندى
بنخبة من اعلام الفكر والأدب فى ذخائر
كتب العرب ، اذ كان صديقنا القديم
الاستاذ « حسن السندوبى » ينشر فيها
ينشر بيان « الجاحظ » وشعر
« المرافقة » وما الى ذلك من نفائس
الأدب ، فعظم فى خيالى اسم الوطن
الذى نسب اليه ادينا المحقق ، وصدق
المثل : سفاك بالعبدى - او بوطون
السندوبى - خير من ان تراه !

وجاورنا البلدة مسرعين ، فاحتوانا
« الشارع العباسى » مدخل « المنصورة »
الاصيل ، وانه لحن شعبى صميم ، فيه
مشابه من منطقة « الحسين » و « السكة
الجديدة » بالقاهرة ... وواصلنا
السير ، وظلنا الليل تسندل رويدا ،
فانبرت لها سهام النور تبعد لحواشيها
الثقال .

وبلغنا الفندق ، فامطينا فيه قليلا
نستجم ، وخرجنا الى « جمعية الشبان
المسلمين » : بيت التصيد فى هذه الزيارة
... دار عامرة ، وحشد من العلماء
والادباء ، جمعت بينهم فضيلة الوفاء
لمن أسدى الى العلم والأدب يدا يفضاء .
وشد ما كان الدين منارا للفضائل
ومكارم الأخلاق ، وشد ما كان داعيا
الى العلم والتفكير فى ملكوت الله .

ووصلنا .. وأول ما استقبلنا
 « مسجد موق » ، وهو مبنى له خطره
 في عالم الآثار ، إلا أنه يدين بشهرته
 الكبرى لدار « ابن لقمان » ، فهو
 بلاصقها ، وكأنه يلهيها ، أو كأنه لسانها
 الناطق ، وصوتها الجهر ، يعلن في
 موافيت الصلوات الخمس من كل يوم
 نداء التاريخ الخالد :

الله اكبر ... هنا قضى الملك
 « لويس التاسع » فترة اسره ، بعد أن
 دحر المصريون جيشه ، وهو يحاول
 الفزو والعدوان ، في منتصف القرن
 السابع الهجري ... الله اكبر !

والجهدا الى الدار النبيلة العظيمة
 ... بالله ! ... تم من مظهر ضئيل
 تكاد تقتحمه العيون ، له من اصالة
 المخبر ، ونفاة الجوهر ، ما يمنحه سر
 الخلود ... تلك دار متواضعة بالغة
 التواضع ، في صدرها بوابة منظمته
 عليها طابع الدعة والسذاجة ، وعلى
 جبهتها لوح رخامي خط فيه تعريفه
 وجبل بالدار .

ودخلناها .. تشبع في نفوسنا منها
 فرحة النصر ، ونحس لخطانا على
 أرضها خفق الطبول ... وكأننا نتابع
 زحف الجحافل من أبطال المدينة في عصر
 المعركة ... اتنا نسير في ركاب الموكب
 التاريخي ، نهتف للسلف المجيد هتاف
 الاموار والاعتماد بما نال من ظفر .
 وإذا كنا قد حرمنا أن يكون لنا فضل
 المشاركة في ذلك الجهاد الوطني ، فلا
 يفوتنا اليوم أن نستحضر في ذهانتنا
 ركب التاريخ ، مشيدين بذكراه ،
 سائرين على هده ، ونحن نواصل

وفي بكرة الصباح طوفنا بالمدينة ،
 نستطلع ونتعرف : رصيف ممدود على
 النيل ، حافل بالنارة والإندية ، يواريه
 على النشاطي الآخر نظير له في بلدة
 « ملخا » ، وكلاهما يتنافسان في مجدل
 التحضر ، وهما يتواصلان بجسرين
 عظيمين ، وما أشبه البلدين يتوأمين
 يربطهما هذان الجسران ، كأنهما شريكان
 يتبادلان بهما حركة الحياة ، ولا يملكان
 التفكاك .

والمنشآت العمرانية في « النصورة »
 تنمو سراما في قوة وجبروت : الجامعة
 تتخلق ، والسوق العظيمة على وشك
 أن تستقبل المتاجر والرواد ، وقصر
 الثقافة يتعالى صرحه عل النشاطي ،
 الى غير ذلك مما يشعر بالاستجابة
 لروح التطور في المجتمع البناء .

وكنا ، ونحن نجوب المدينة ، نحس
 الذكريات الجيدة ترافقتنا في كل خطوة
 نخطوها ، أنت مع « الصالح ايوب »
 و « الملك الكامل » و « شجرة الدر »
 و « ابن لقمان » وغيرهم من شخصيات
 التاريخ الوضي لهذا البلد الطيب ،
 فالشوارع والمؤسسات والمعاهد
 والمساجد والأسواق تنطق بأسماء
 هؤلاء الأبطال الغابرين الأحياء !

وحين حسبنا أننا بلغنا غاية الشوط ،
 قلت للدليل :

آه لنا ان نرجع .

فالتصمت نظرائه قائلا :

بقي الأهم من كل ما شهدت ... ألا
 تلم بدار « ابن لقمان » ؟

فقلت : بنا إليها ...

الكفاح من أجل وطننا الفتى ، لنكسب
له النصر تلو النصر في عهدنا الجديد . .

وهبطنا الدرج ، فلذا نحن في معر
صغير ، تحلى جدرانها نبد تنقل اليك
لمحات من صفحات التاريخ في وصف
الحملة العاشية على المدينة ، وصور
تذكارية لافتتاح الرئيس « جمال
عبد الناصر » للدار ، ولا غرو أن نرى
قائد الانتصار على العدوان الجديد في
مدينة « بورسعيد » يحيى ذكريات
الانتصار على العدوان القديم في مدينة
« المنصورة » .

وانقلنا الى محن الدار ، فأسلمنا
الى غرفة علوية تزينها شرفة ، تقع
تحتها حجرة اشبه بحاصل للدواب ، في
الغرفة العليا حبس « لويس التاسع »
وفي الحجرة السفلى حبست حاشيته
واحراسه .

وخرجنا الى قاعة فسحة يسبح فيها
خضه النهار ، هي معرض حافل بلخائر
فنية عصرية او قديمة ، متصلة اونف
اتصال بالغزو والانتصار . . . وهذا
المعرض يتحدث اليك بلغة الرسوم
المجسمة ، والتماثيل والالواح
والخلفات ، حديثا شافيا يفنيك عن
فروس مطولة وجولات بعيدة فيما كتب
الباحثون والمؤرخون .

هناك تطلعك رسائل تبودلت بين

الغزاة الدخلاء وحماة الوطن الأبطال ،
فكانك تفضها بنفسك ، وتكشف فيها
عما امتلأت به رموس المعتدين من صلف
وهنجمية وكبرياء ، وما عبرت قلوب
الحماة المدافعين من عزة وكرامة واباء .
وتنقل بصرك بين الرسوم والتماثيل
والالواح والخلفات ، فيقرع سمعك
صوت النفر ، وصليل السيوف ،
وسنايك الخيل ، وهرير الأنفاس ،
وتتمثل نفسك على مرقبة من المعارك
الطاحنة ، تشهدا بين جزر ومد ،
واقترحام وانهمام ، ولا تلبث أن تخوض
غمارها ، شاعرا سيفك ، مرخصا في
سبيل الوطن حياتك ، ثم تجدك بين
حشود الأبطال المنتصرين يسوقون الملك
المعتدى اسيرا في موكب المهانة والاذلال ،
ينتهي به المطاف الى الحبس ليقتضى فيه
ما كتب له من ايام ، وترى من بعد ذلك
جمعا من الرسل اقبلوا على قاضي
القضاة ، يستنفذون ملكهم بما فرض
عليهم من فدية ، وهم يجرون اذيال
الخزي والعار .

وناهينا لمغامرة دار النصر ، في مدينة
النصر . . . وقد احاطت بنا اطراف
نورانية ، من آفاق التاريخ البعيد ،
كانها تحرس المدينة الخالدة ، وببارك
ولبتها مع الوطن كله في الحاضر المشرق
المشهود ، وتحبى تطلعا الى الغد الباهر
المشود .

